صفي الدين الحلي

— ٢ —

صفة شعره :— ونوضح ما أجملناه من وصف شعره بما نقول :

أغراض شعره :— نظم الحلي الشعر في أكثر أغراضه فأجاد في بعضها وقصر في بعض :

(١) فاما باب الفخر والحماسة الذي صدر به ديوانه فاكثر ماقاله منه في صباه وجرى في أكثره على طبيعة شعر المتقدمين ؛ فقلل من البديع ، وآثر الجزالة وظهرت فيه صورة البداوة التي شب عليها في بلدته الحلة ، وهي من مدن الاعراب . فمن ذلك قوله من قصيدة يفتخر فيها بانتصاره في الموقعة التي أخذ فيها بثأر خاله :

لمن الشواذب كالنعام الجفَّل ... كسيت جلالاً من غبار القسطل
يبرزن في حلل العجاج عوابساً ... يحملن كل مدرع ومسربل
شبه العرائس تجتلى فكأنها ... في الخدر من ذيل العجاج المسبل
فعلت قوائمهن عند طرادها ... فعل الصوالج في كرات الجندل
فتظل ترقم في الصخور أهلة ... بشا حوافرها وان لم تنعل
يحملن من آل العريض فوارساً ... كالاسد في أجم الرماح الذبل
تنثال حول مدرع بجنانه ... فكأنه من بأسه في معقل
مازال صدر الدولة الـ ـ ملياء صدر الجيش صدر المحفل

وهي طويلة ومثلها قصيدته التي أسلفنا أولها ، ونختار منها الابيات الآتية :

سلي الرماح العوالي عن معالينا ... واستشهدي البيض هل خاب الرجا فينا
وسائلي العرب والاتراك ما فعلت ... في أرض قبر عبيد الله أيدينا
يا يوم وقعة زوراء العراق وقد ... دنَّا الاعادي كما كانوا يدينونا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بضمّر ما ربطناها مسوّمة ... الا لنغزو بها من بات يغزونا
وفتية أن نقل أصغوا مسامعهم ... لقولنا أو دعوناهم أجابونا
قوم اذا استخصموا كانوا فراعنة ... يوماً وان حكموا كانوا موازينا
اذا ادعوا جاءت الدنيا مصدقة ... وان دعوا قالت الايام آمينا
أن الزرازير لما قام قائمها ... توهمت انها صارت شواهينا
انا لقوم أبت اخلاقنا شرفاً ... أن نبتدي بالاذى من ليس يؤذينا
بيض صنائعنا سود وقائعنا ... خضر مرابعنا حمر مواضينا
لا يظهر العجز منا دون نيل منى ... ولو رأينا المنايا في أمانينا

(٢) وأما المدح فهو جل صناعته وزعم في مقدمة ديوانه انه كان لا يتكسب به في نشأته . ثم أعوزته ضرورة الفرار من وطنه الى التجاع الملوك والتكسب به . وله مدائح جيدة في الملوك ومدائح نبوية منها بديعيته التي فتحت للشعراء بعده باب نظم البديعيات ؛ فهو أول من نظمها . وبديعيته التي تعتبر الاولى من هذا النوع واستعمل فيها كل أنواع البديع المعروفة في زمنه عارض بها بردة البوصيري في الوزن والقافية والموضوع ، اذ كانت الغاية في عصره بين المدائح النبوية ، ولانها حوت من أنواع البديع الكثير مع انسجام لفظ وبراعة معنى ، فلم يبلغ شأو البوصيري فيها ، ولكنها أصبحت في الغرض الصناعي الذي وضعت من أجله فاتحة البديعيات ، فعارضه باديء بدء عز الدين الموصلي ، وزاد عليه تسمية النوع ، ولكنه تكلف لذلك تكلفاً غير يسير ، ثم جاء ابن جابر الهواري الضرير الاندلسي مهاجراً الى الشرق ، ودخل الجزيرة ، ومدح ابن الصالح ملك ماردين بعد وفاة الحلي ، فعارضه بقصيدة بديعية جارى الحلي في عدم التصريح باسم النوع فجاءت بليغة في جملتها ، ثم جاء تقي الدين بن حجة الحموي ونظم بديعيته المشهورة مصرحاً فيها باسم النوع ، ولم تخل من تكلف ، ثم عارضها آخرون لا يحصون الى وقتنا هذا . ومطلع بديعية الضفي المسماة الكافية البديعية في المدائح النبوية هو :

ان جئت سلعاً فسل عن جيرة العلم ... واقر السلام على عرب بذي سلم

(٣) وأما المراثي فهو ممن يجيدها ، وكان يعارض في كثير منها مشهورات مراثي المتقدمين ومن ذلك قصيدة يرثي بها أخاه عارض بها نونية المعري التي رثى بها أباه والتي أولها :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نقمت الرضا حتى على ضاحك المزن فلا جادني الا عبوس من الدجن

فيقول صفي الدين في أول مرثيته وأغار على كثير من معانيها وضمن بعض شطورها :

بكيت دماً لو كان سكب الدما يغني وضاعفت حزني لو شفى كمداً حزني

وأعرضت عن طيب الهناء لانني (نقمت الرضا حتى على ضاحك المزن)

ومن أغرب مراثيه تخميسه لقصيدة ابن زيدون النونية وصرف غرضها الى رثاه .

وباب المراثي في ديوانه حافل بالشعر الجيد فراجعه .

(٤) الطرديات — وقد كاد يلحق في هذا الباب أبا نواس وابن المعتز وشعره فيها جزل بليغ خال من سفساف البديع ، لان المقام مقام فروسية وتبدٍّ وإصحار . وقد اقتبس هذه الخلة من بيئته البدوية الاولى ومن خدمته لملوك من الترك والكرد كملوك ماردين وحماة وكان يشهد معهم المصايد ويصف لهم آلات الصيد من أقواس السهام وأقواس البندق وكلاب الصيد وفهوده وشواهينه وبواشقه وصقورته كما يصف المصيد من الكراكي والتم الخ .

وله في الطرد مسمطة خماسية من الرجز لا أدري ان كان عارض بها ابن نباتة في طرديته أوهذا الذي عارضه ، غيرأن طردية ابن نباتة ، من نوع الرجز المزدوج بمشطورين فقط ومطلع طردية صفي الدين هو :

أما ترى الانواء والسحائبا قد أصبحت دموعها سواكبا

فاكتست الارض بها جلابيا فاظهرت أزهارها عجائبا

غرائباً أضحت لنا رغائبا

ومطلع ابن نباتة هو :

أثنى شذا الروض على فضل السحُبْ واشتملت بالوشي أرداف الكُثُبْ

ما بين نور مسفر اللثام وزهر يضحك في الأكمام

ان كانت الارض لها ذخائر فهي لعمري هذه الأزاهر

قد بسطتها راحةُ الغمائم بسطَ الدنانير على الدراهم

أحسنْ بوجه الزمن الوسيم تعرف فيه نضرة النعيم

وكأنك معي تشعر بان طردية ابن نباتة المصري أرق وأرشق .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(٥) الخمريات — وهو في وصفها خليع مستهتر يعترض على تحريمها ، ويؤنب اللائمين في معاقرتها وطالما تاب عنها ثم عاد اليها ، وكثيراً ما جعلها محل النسيب من مدائحه السلطانية كقوله في مطلع مدحه للملك المنصور :

دقّ شوال في قفا رمضان وأتى الفطر مؤذناً بالتهاني
فجعلنا داعي الصبوح لدينا بدلاً من سحوره والأذان

الى أن قال :

شملتنا من ناصر الدين نعمى نصرتنا على صروف الزمان

(٦) الغزل — وهو فيه رقيق القول جيد المعنى يبتدئ به المدائح المطولات وينظم فيه المقطعات ، واكثر مايكون غزله بالمذكر ، وبخاصة غلمان الاتراك . وقد يبلغ به الاستهتار أن يعقد موازنة بين الغلمان والجواري ، ولم يكن هذا ديدنه وحده بل كان دأب أدباء زمانه ، ولو لم يقارفوا منكره . وكأن ذلك كان يعجب ملوك الترك والكرد فيستملحونه ، ويستمون اليه لمصادفته أهواء من أفئدتهم . ومن أرق قوله فيه :

يا ضعيف الجفون أضعفت قلباً كان قبل الهوى قوياً مليا
لا تحارب بناظريك فؤادي فضعيفان يغلبان ويا

وقوله :

قيل إن العقيق قد يبطل السحـ ـر بتختيمه بسر حقيقي
فأرى مقلتيك تنفث سحراً وعلى فيك خاتم من عقيق

وقوله :

مازال كحل النوم في ناظري من قبل اعراضك والبين
حتى سرقت الغمض من مقلتي ياسارق الكحل من العين

(٧) الوصف — وهو فيه حسن التخيل بديع التصوير ، فاذا وصف الازهار ومجالس الانس سهل شعره ورقت ديباجته واذا وصف الوحش والفرس وسرى الليل ونحوه اتى بالمتين والجزل ؛ فمن ذلك قوله في فرس أدهم محجل :

ولقد أروح الى القنيص وأغتدي في متن أدهم كالظلام محجل
رام الصباح من الدجى استنقاذه جسداً فلم يظفر بغير الأرجل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فكأنه صبغ الشبيبة شبابه وخط المشيب فجاءه من أسفل

وقوله في وصف عود الطرب :

وعودٍ به عاد السرور لأنه حوى اللهو قدمًا، وهو ريان ناعم
يغرّب في تغريده فكأنه يعيد لنا ما لقنته الحمائم

راجع ديوانه في الطرديات والزهريات . ولقد خاض صفي الدين في أغراض أخرى من الشكوى والالغاز والمعاياة فراجعها في ديوانه .

اسلوب شعره :— يغلب على شعر الحلي الاوصاف الآتية :

(١) سهولة اللفظ وانسجام الاسلوب في جملته . وقد قصد الى ذلك واعتد به في أكثر شعره حتى انه ربما أسف الى استعمال الاساليب العامية الصورة . « ونقل عن نفسه في ديوانه أن بعض الادباء سمع شعره فاستحسنه ، وقال لا عيب فيه سوى قلة استعماله للغريب فكتب اليه ابياتًا الخ » ثم اتى بقصيدة ذكر فيها جملة ألفاظ من غريب اللغة من الحماسية الاصول الصعبة المخارج كأن الغرابة عنده بطول الكلمات وصعوبتها ، وكأنه غفل عن أن العرب انما تطيل اللفظ لزيادة المعنى إما في الحسن والقبول ، وإما في القبح والاستفظاع . على أن ما ورد في اللغة من الخماسي لا يعدو خمسين كلمة . وكذلك تضع العرب الكلمة ذات الحروف الصعبة المخارج للمعنى الفظيع كالعجوز والحجارة والداهية الخ وهاك ابياتًا منها :

انما الحيزبون والدردبيس والطخا والنقاخ والعلطبيس
والخرافيج والشقحطب والصة مب والعنقفير[1] والعنتريس
والغطاريس والعقنقس والفر نق والخربصيص والعيطموس
لغة تنفر المسامع منها حين تروى وتشمئز النفوس

وهو احتجاج بارد لا يقصد اليه منتقده ؛ فهل كان غريب مسلم بن الوليد وأبي تمام والمتنبي بل المعري من هذا النوع على أنه — كما قدمنا — اذا قال الشعر في الطرديات أو الفخر والحماسة اتى بالغريب المراد ونسي البديع وتكلفه .

(٢) الاستكثار من استعمال البديع اذ كان من المبتدعين لبعض انواعه وأول من نظم البديعيات وله كتاب في الجناس ومن انواع البديع التي يستعملها في شعره الجناس

(١) ذكر اللفظين المزهر في الاسماء التي جاءت على فنعليل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والتضمين ويكثر منه ويجيده وقد ضمن كثيراً من شطور قصائد المتقدمين المشهورة كمعلقة امرئ القيس ومقصورة ابن دريد ولامية العرب والاقتباس من القرآن — والمراجعة . وما لا يستحيل بالانعكاس والتوجيه باصطلاحات العلوم واهمال الحروف واعجامها على أنواع شتى والتصحيف والسجع في الشعر وهو ممن لا يخل بالتورية كما قال ابن حجة وصدق في قوله على انه قد وقع له منها بعض المقبول .

معاني شعره . — ليس الحلي من أولي الابتداع في المعاني والغوص على نفائسها واكثر معانيه مسبوقة أو فطرية ، ولكن الذي جعل له هذه الشهرة الذائعة سترها في أغلب الشعر برقيق اللفظ ودماثة الاسلوب ويقل اختراعه وربما كان منه قوله من قصيدة يمدح بها الصالح :

لولا كم لم يكن في الشعر لي ارب ولا برزت به من خزن تامور
فضيلة نقصت قدري زيادتها كالاسم زادت به ياء لتصغير

وقوله منها يصف صب الخمر :

وللابارين عند المزج لجلجة كنطق مرتبك الالفاظ مذعور
كأنها وهي في الاكواب ساكبة طير تزق فراخاً بالمناقير

وقوله في تأخر منزلته :

كأنني من رقوم الهند أوجب لي علو مرتبتي افراط تاخيري

(باعتبار أن كتابة الارقام ككتابة الحروف العربية من اليمين الى الشمال كالنطق بها)

عيوب شعره . —

(١) منها تكلفه لدرجة المقت والبرد إيثاراً لصناعة البديع من امثال التجنيس والقلب والاهمال والاعجام ونحو ذلك .

(٢) كقوله في ممدوح :

مهذب محبب مجرب للمجتني والمجتلي والمجتدي
فقوله وطوله وطوله للمغتني والمعتفي والمعتدي

وقوله في قصيدة كل اسمائها مصغرة :

وذياك الأُوَيمِع في الضُحيا وجَيهك أم قُمير في سُعيد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(٣) وتوع كثير من اللحن لغة ونحواً في شعره مثل قوله من قصيدة منصوبة الروي يصف الدروع :

مرواتبها خزر العيون فأوجست جزعاً وكادت بالكماة تميدا

وقوله وقد استعمل همزة القطع موصولة ولا يجوز ذلك حتى في الضرورة :

وابلُغ الرملة الانيقة (وابلِغ) معشراً لي بربعها وأهيلا

كنت جلداً فلم يدع بينكم لل جسم حولاً ولا لقلبي حيلا

(٤) فساد معانيه واستعاراته وتشبيهاته في كثير من المواضع كقوله في تشبيه خمسة بخمسة فجمع البدر والهلال في آن واحد في وصف فارس يلعب بالصولجان :

ملك بروض فوق طرف قارع كرةً بجوكان حكاه ضرابا

فكأن بدراً في سماء راكباً برقاً يزحزح بالهلال شهابا

القاهرة : احمد الاسكندري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net